العصـا

الأسرة تسكن حجرة بالدور الأرضى ·· الأسرة كبيرة العدد ·· والحجرة رطبة ·· داكنة بالليل والنهار ! جلس العائل بالقرب من المدخل على حشية قطنية مهلهلة ·· لعله أراد أن يرى بياض النهار ·· لم يقصد الترويح ·· بل لأنه قعيد يعتمد على غيره ·· زوجته أو أحد أبنائه ·· أيهما أقرب منه ··

العائل الكسيح دائما مشغول مع ذكرياته ·· ماضيه الذى كان ·· وجهه قطعة من الحسرة ·· يتأمل قطع الأثاث القليلة ·· كانت عديدة يزدحم بها مسكنه الكبير الذى كان ·· باعتها الزوجة قطعة قطعة ·· كما باعت نحاسها وحليها ·· حدث كل هذا بعد زيارة ذلك الرجل ·· الذى يذكر ملامحه « البوسطجى » ··

ويذكر اللحظة التى أعطاه فيها الخطاب الحكومى المسجل ·· تناوله بيد مرتعشة ·· وقلب نابض ·· وبصيص من الأمل ·· فتح الخطاب فى وجل ·· لم يكمل قراءة السطر الأول ·· حتى

زاغ بصره ·· وبلغت روحه حنقومه ·· لو يقدر ساعتها لهرول خلف البوسطجى ·· وتدفقت دموع حبسها انتظار الأمل ·· لقد وقع على فصله من العمل لعجزه ·· مقابل جنيهات قليلة ·· تكفى بضعة أيام من الشهر ·· تسمى معاش وكأن على هؤلاء أن يعيشوا لبضعة أيام هذه ويموتوا باقى الشهر ·

صكت الزوجة صدرها حين أبلغها الخبر ·· تداعت باكية حظها والأبناء من حولها يبكون بعضهم تأثرا بالخبر ·· والآخرون تأثرا بالموقف ··

انكمشت أساريره ·· انفرجت ·· ضحك ســـاخرا حينما وقعت عيناه على عصـــا فى ركن الحجرة ·· والتى أســمتها ابنته الكبرى بالعصا الأثرية ·· بلى فقد كانت لجده ·· ولقد رآه فى أواخر أيامه يتوكأ عليها ·· كم كان يحب جده ويعشق ابتسامته الودودة ·· وكانت لأبيه بعد جده ·· وما زالت تعاشرهم ·· كم هى كالحة ·· لكنها وفية عشرية ·· كتم أنينه ·· لقد مرت عليهم أياما ضنكا ·· سدت أمامهم كل سبل العيش ·· لم تتوان الزوجة أن تبيع أسورتيا ·· هديته الوحيدة لها ·· بكى لحظتها بكل جوارحه بكاءا مرا ·· على الرف الوحيد صندوق خشبى عتيق ·· تغير لونه ·· بالأمس كان يحوى مالا لا بأس به ·· غدا اليـــوم فارغا خاويا ·· وها هو الابن الصـــغير ·· آخـــر العنقود ·· يدفع بالكرسى الوحيد أمامه ·· فلت هذا الكرسى من البيع لافتقاده الرجل الرابعة ·· ينقلب الكرسى الأعرج ·· وينكفىء الصغير ·· يفلح فى الوقوف ·· ويفشل فى ايقاف الكرسى ·· يقطب ·· نسى ماضيه وذكرياته ·· زحف بمقعدته ·· أوقف الكرسى ·· لكن الصغير سئم اللعبة ·· وانصرف الى أخرى ·· وما اللعبة الا قطعة من الأثاث ·· أو الأدوات ·· يحولها الى لعبة ··

ويعاود الذكريات ·· ان لهذا الكرسى أهمية قصوى ·· ففى الليل يستخدم شماعة ملابس ·· كما تجلس عليه ابنته الكبرى لتستذكر دروسها ·· وفى النهار لعبة الصغير ·

الأم تعود عنـد تسلل الليل ·· على وجهها شـحوب يزداد بمضى الأيام ·· عودها يذبل ·· الحسرة تنهش قلبه ·· كانت وردة يفوح أريجهـا ·· وها هى آيبـة ·· الحسرة تعض قلبه وتعتصره ·· أن من أعماقه ·· لم تلتفت نحوه ·· فقد تعودت أذناها تلك النغمة ·

فى هذا الوقت تعود الزوجة ·· وكانت قد خرجت فى الفجر ·· لم تتأخر يوما منذ زيارة البوسطجى المشئومة ·· وما العمل سوى غسل ملابس الناس لقاء أجر زهيد ·· ترد به وحش الجوع عن زوجها وأبنائها ·· بجانب جنيهات المعاش القليلة ·· ومنذ رجـوع الزوجة ·· يطأطىء الزوج رأسـه خجلا ·· وكيف يرفع رأسه وهو العائل ·· والكسيح الذى لا حول له ولا طول ··

فى هدوء تجلس الزوجة ·· تستشعر الألم ·· فالأولاد يكبرون ·· وتكبر معهم احتياجاتهم ·· ترقبها ابنتها الكبرى ·· رفعت الأم وجهها ·· التقت عيناهما ·· طالت النظرة بينهما ·· لعلهما يبثان حديثا بالغ الأهمية ·· دخل الابن الصغير ·· وقف أمام أبيه ·· هـم بأن يتفوه ·· لكنه لمح أمـه فسعى نحوها قائلا :

ـ أمى ·· أريد حلوى حمراء ·· مثل عزيزة ··

وعزيزة هذه ابنة الجيران ·· بالطبع كانت بيدها حلوى ·· تأكلها فى نشوة ·· بينما الصـغير يزدرد لعابه فى لوعـة ·· احتوت الأم فلذة كبدها بعينيها ·· **وكأنما تقول له :**

– لو لم تخرج من الحجرة .. ما رأيت عزيزة .. وما رأيت الحلوى بيدها .. و .. وما طلبتها ..

قرأت الأم التأثر الذى لاح فى أسـارير الزوج العاجز .. وما زال الطفل يلح .. الزوج يبتعد بعينيه ليخفى دموعه .. على الفور أخرجت الأم منديلا من صدرها .. حلت رباطه .. انتقت قطعة صغيرة **وأعطتها لولدها .. ولسان حالها يقول :**

– خذ يا بنى .. ثمن طعام يكفى لملء معدتك .

انصرف الابن غير عابىء بحديث أمه النفسى .. ولا بنظرة والده الممتنة لها .. وعاد الصمت يجول فى الحجرة .. وأضاف الوجوم كثيرا من الشـجون .. والأولاد يتطلعون الى الأم أملهم المرتقب .. وجهها قطعة من العذاب .. ذبالة المصباح تتراقص فى كسل .. الابنة الكبرى ما زالت واقفة .. ساهمة .. حانت من الأم نظرة اليها .. رأت يديها البضتين وعودها الريان .. انها تمثل شبابها .. تتفجر بالأنوثة مثلها .. عينا الزوج عليهما .. ورأسه تدور .. الزوجة تخفى رأسها بين يديها .. تفكر لاريب .. الزوج يقـرأ ما يدور فى فكرها .. ويعلم أنهـا تبكى .. وهذا يزيده لوعة واحتراقا .. والابنة أيضا تعرف كل ما يجـرى .. وكل ما تخفيه الصدور .. يعصف برأس الأم خاطر غريب ..

– لو أفر من هذا الجحيم .. ومنهم أجمعين !

وسرعان ما تطرد هذا الخاطر .. وتتمتم بالاستغفار .. وبعين المستقبل ترى ابنتها جالسة أمامها بينهما طست به ملابس الغير .. فى ذلك البيت وذاك .. تقاسى ما تقاسيه آلام جسمية ونفسية مبرحة ..

يشتد فزعها :

ـ لو أعمل ليل نهار ·· ولا أدعها تخـــرج الى العمل ·· فأولاد الحرام يعجون فى كل شبر من الأرض ·· وفى كل حين ·· كأنهم الشياطين ··

يدخل الصغير ·· الفرحة تضيء وجهه ·· تؤكدها قفزاته السعيدة ··

بيده قطعة الحلوى الحمراء ·· فى هذه المرة يجنح الى والده ويقول له :

ـ خذ هذه القطعة الصغيرة ··

يهز الأب رأسه وقد ارتعشت شفته السفلى ·· وألهبت عينيه دمعة حارة ·· وتوهجت أحزانه حين رأى ابنه يلف على اخوته ويعطى كلا نصيبه من حلواه بين صياحه وتهليله ·· ثم حبا ناحية **الأم وقدم اليها باقى الحلوى قائلا :**

ـ وكل هذا نصيبك يا أمى ··

ثم يتساءل مباغتا :

ـ أين تذهبين يا أمى كل يوم ؟

ولا تملك الأم الا أن تنظر الى زوجها ·· كأنها تسأله الاجابة ·· ولم يكن فى وسعها الا أن تجذبه الى أحضانها ·· تمسح دموعها فى صدره ··

حينئذ يقول الطفل :

ـ حين أكبر سأعطيك حلوى كثيرة ··

··· ثم يقول فجأة :

ـ أمى ·· هل اقترب العيد ؟

ـ العيـــد ؟ !

ماذا تعنى هذه الكلمة ·· كأنها لم تسمع عنها ·· أو نسيت مدلولها ·· وأجابت دون وعى :

ـ بـلى ··

ضحك الطفل وصفق طربا ثم استطرد :

وأين ملابسى الجديدة ·· وملابس اخوتى ؟

ـ ملابس ·· جديدة !

جعلت الأم تكرر هاتين الكلمتين ·· بينما جاس طرفها فى الخرق التى تستر أجسامهم ·· ثم نقلت بصرها الى زوجها فوجدته بعيدا ·· وقد تشنجت كل عضلاته ·· لعب لسانها فى فمها ولم تتبس ·· ودعت الصغير يحلم بما سيصنعه يوم العيد ·· ماذا تقول له ·· والحقيقة ماثلة تتحدث عن نفسـها ·· كل يعلمهـا الا الصغير ··

ولم يدعها الصغير فبادر بسؤاله :

ـ أقول لك أين ملابسنا الجديدة ؟ !

عندئذ اندفعت الابنة الكبرى بعد عذاب وتردد ·· قائلة :

ـ أنا التى سأحضرها لك ··

ترددت أنفاسها سريعة ·· اتجهت اليها أنظار الاخوة فى دهشة ·· وكذا الأب العاجز ·· والأم حائرة ·· وكانت تعلم أن أذنيها ستصطك بهذه الكلمات القاسية ·· وجعلت الكبرى تنقل بصرها بين أمها وأبيها لتستشف وقع كلماتها وصداها ·· وهنا تبرق عينا الأب ببريق خاطف ·· مخيف ·· وقال بصـــوت مخنوق :

ـ مستحيل ....

ثم ركز بكلتا يديه على الأرض .. وجعل يزحف على عجيزته بين نظرات العجب من الأم والأبناء .. وتصفيق الصغير وصياحه .. استطاع أن يصل الى ركن الحجرة نظر الى العصا الأثرية فى أمل .. اجتذبها .. استطاع أن يضع راحته على طرفها العلوى .. واعتمد بيسراه على الحائط المجاور .. استطاع أن يقف منتصبا .. ازدادت الدهشـــة وعلا تصفيق الصغير .. خطا الكسيح .. جعـــل يدب بعصاه على أرضية الحجرة حتى وصل الى بابها ثم وقف واتجه بنظراته النارية الى زوجته قائلا فى عزة وبصوت جهورى عميق :

ـ لا تبرحى الحجرة ...

خرج العـــائل .. وقفت الأم ومن حولها الأبنـــاء على باب الحجرة .. الابتسامة تتعلق على كل الأفواه .. وعلى وجه الأم فرحة وفى عينيها دموع .. مشى الأب والأمل يدب فى قلبه مع دبيب عصاه .. وسرعان ما اختفى بين الزحام .